دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی | نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
دوره اول، شماره اول، پاییز و زمستان ۱۴۰۰ | السنة الأولى، العدد الأول، خريف وشتاء ۲۰۲۱

الواقع التراثي الديني والتحوير العصري الفنّي في سدوميّات خليل حاوي

أحمد نهيرات (الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كردستان)
جميل جعفري[1] (الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كردستان)
DOI: 10.22034/jilr.2022.62113

CC BY

تاريخ دريافت: ۱۳۹۹/۰۹/۱۵ | تاريخ الوصول: ۲۰۲۰/۱۲/۰۵
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۰/۰۸/۰۵ | صفحات: ۸۵-۱۰۳ | تاريخ القبـول: ۲۰۲۱/۱۰/۲۷

الملخص

وردت قصة "سدوم" وأهلها في التراث الديني لتبيّن عاقبة الكافرين والمنحرفين جنسياً واستحضرها خليل حاوي وعصرنها في ثلاث قصائد. مستخدمين الأسلوب الوصفي- التحليلي، لقد قمنا في البحث بتبيين الجذور التراثية الدينية لبعض المفاصل في القصائد، وكيفية عصرنة الشاعر للقصة بإسقاطها على الواقعين الاجتماعي والسياسي في الوطن العربي، وكيفية استغلالها للتعبير عن الرؤى التشاؤمية، ثم بيان التحوير الفني فيها. تبدو نظرة الشاعر المتشائمة جلية في القصائد، واعتمد الشاعر فيها على التعبير الرمزي عن موضوع السيادة في الوطن العربي، وعن رسوبات القديم، والأفكار الرجعية بنظرة ساخطة؛ فصبّ جام غضبه على الحكام لظلمهم واستبدادهم، وعلى الشعوب لركونهم وانصياعهم للمستبدين. النتائج تشير إلى أن شاعرية الشاعر في السدوميات مرّت بالمراحل التالية: تبدو نظرته القاتمة إلى الوجود ماثلة في القصيدة الأولى "سدوم". فالحيرة، والقلق، والموت تجثم بثقلها على الوجود فيها. في القصيدة الثانية "عودة إلى سدوم" يبدو تغيير جذري في نظرة الشاعر، إذ نلمس شيئاً من التفاؤل، والأمل بالبعث العربي. ولكنه أمل سرعان ما يذوي في نظر الشاعر ليحلّ محله شؤم جديد؛ وهذه النظرة بارزة في القصيدة الثالثة "سدوم للمرة الثالثة".

الكلمات الرئيسة: قصة سدوم، الرمزية، التشاؤم، العصرنة، الشعر العربي.

بازآفرینی هنری میراث دینی در سدومیات خلیل حاوی

[1] الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: j.jafari@uok.ac.ir

چکیده

در میراث دینی، با ذکر داستان سدوم و ساکنان آن، به بیان عاقبت انحراف جنسی پرداخته شده و عاقبت منحرفان به تصویر کشیده شده است. نویسنده معاصر، خلیل حاوی نیز این داستان را در قالبی نوین و با بیانی متناسب با عصر حاضر، در سه قصیده بیان نموده است. در این مقاله، با استفاده از شیوه تحلیلی- توصیفی تلاش شده است تا ریشه های تاریخی و دینی این داستان در برخی از بخش های قصاید حاوی بیان شده و چگونگی مناسب سازی آن با قالب های داستانی عصر نوین، توضیح داده شود و نیز هدف حاوی از بیان بدبینانه در قصاید تبیین گردد. دیدگاه شاعر در این قصیده ها کاملا بدبینانه و متشائم است و شاعر با استفاده از بیان نمادین، به مسأله حاکمیت در سرزمین های عربی اشاره نموده و به ته مانده های کهن گرایی و افکار ارتجاعی، با ناخرسندی نگریسته است. وی بیان آتشین خود را علیه حاکمان به دلیل اِعمال استبداد و ظلم، و علیه مردم به سبب کرنش در مقابل جور و ستم، گشوده است. با توجه به نتایج می توان بیان داشت که شاعر، در قصاید خود سه رویکرد متفاوت دارد: در قصیده اول "سدوم" دیدگاه وی کاملا بدبینانه و آمیخته با سرگشتگی، اضطراب و مرگ است. در قصیده دوم "بازگشت به سدوم" در دیدگاه او تغییر اساسی رخ می دهد و خوش بینی و امیدواری به خیزش عربی، جای بدبینی را می گیرد. اما دیری نمی پاید که این خوش بینی در قصیده سوم "سدوم برای بار سوم" به بدبینی بدل شده و یأس فضای قصیده را آکنده می سازد.

کلیدواژه‌ها: داستان سدوم، نماد پردازی، بدبینی، نوگرایی، شعر عربی

١– المقدمة

أصّل الشعراء تجاربهم الشعرية بالاستقاء من الماضي «إنّ الأصالة في اللغة لا تعني، كما كان الحال على مدى مراحل طويلة، العودة إلى الماضي، والانصهار في طبيعة أحكام اللغة، وإنما غدت من منظور الجدلية التاريخية التراثية، تتحدد بأنها استعادة لهذا الماضي–التراثي للغة، استعادة جدلية تاريخية تراثية خلاقة (مبدعة)» (بن نعمان، ٢٠٠٥: ٢٠٧).

حتى الأدب (وشخصياته) أخذ نصيبه من الحضور في الشعر الحديث لتلعب دورها فيه: «فإنّ الشخصية الأدبية أصبحت تمثّل مجتمعا كما تمثّل نظامه ومراتبه المختلفة» (زيرافا، ١٩٨٦: ١١).

وكان ذلك استجابةً للذوق الشعري الحديث وتماشياً مع الحركة الشعرية الجديدة من أجل المساهمة في ترقية المجتمع: «لقد طالب المثقّف العربي التحديثي بالأخذ بأسباب الحضارة الغربية علماً وفكراً وأداة، حتى تتهيّأ للمجتمع العربي القدرة على تغيير ذاته ضمن أنماط الحضارة الغربية» (حسن، ٢٠٠١: ٦٣)، وقد كان الشاعر خليل حاوي ممن استعان بالماضي لتأصيل شعره.

بلور الشاعر خليل حاوي شعره مستعيناً بما في نفسه من أحوال وتحولات وبما في الخارج من مؤثرات كالمؤثرات الدينية: «والتجربة الشعرية الجديدة تترك للشاعر الحرية في أن يخوض عوالم متباينة بعضها من داخل نفسه، والآخر من خارجها فهي لذلك تجربة تجوب الآفاق وهي متدفقة عارمة تحطم ما يعوقها وترفض أن تخضع للقوالب» (عشماوي، ١٩٨٠: ١٢٨).

وقد كان الشاعر موفّقاً ومُجيداً في اختيار القصة الدينية المناسبة: «جودة التمييز هي التي تعطي للعقل صبغته الأخلاقية وهي التي ستعيّن الوسط الفاضل في كل مجالات التعايش معا» (الميسري وآخرون، ٢٠٠٣: ٢٦٠) والشاعر في إفادته كان مبتكراً بإضفائه شيئاً غير قليل من الرمزية: «واتجه الشاعر من ثم إلى خلق عالم أقرب إلى عالم الأحلام الذي تقوم فيه مكونات صورة الحلم بدور الإشارة، والرمز؛ وتتحول من مجرد الوصف أو الدلالة الوضعية إلى أن تكون دلالة إنفعالية وصورة رمزية للعالم النفسي الذي يلوّن كل جزئيات الصورة أو الحلم» (الورقي، ١٩٨٤: ٤٠).

رمزية القصة الدينية عند خليل حاوي تتفاعل مع الواقع الراهن علاوة على تجذرها في التاريخ ورسوخها في شعور المتلقين وأحاسيسهم: «ومهما تكن الرموز التي يستخدمها الشاعر ضاربة بجذورها في التاريخ، ومرتبطة عبر هذا التاريخ بالتجارب الأساسية النمطية (أي بوصفها رموزا حية على الدوام) فإنّها حين يستخدمها الشاعر المعاصر لا بد أن تكون مرتبطة بالحاضر، بالتجربة الحالية، وأن تكون قوتها التعبيرية نابعة منها» (إسماعيل، ٢٠٠٧: ٢٠٠).

هذه الرمزية قد بسطت هالة من الرومنسية وكذلك الغموض على شعر خليل حاوي، لا يستوعب مفهومه إلّا من تدرّب على المفاهيم الرمزية وأحاط بمعلومات كثيرة موصولة بالشعر، من رموز، وتخيلات، و... . «إن اعتماد الشعر على أسلوب التعبير من خلال مناجاة الأساطير أو الأشباح، واستعادة عرض المفازات التاريخية وبطولة رجال الأحداث الغابرة...، جعل الشعراء يتّكئون على التزاوج بين المبادئ الرومانسية ومعايير الدلالات الرمزية لخلق التعبير التلميحي لصفات الذات الإنسانية المثقلة بمتطلبات المادية» (عوّاد، ٢٠٠٦: ١٢٩).

سعى الشاعر خليل حاوي أن يرفع من المستوى الإنساني لدى متلقي شعره باستقائها من منابعها الأصلية وفي إسقاطها على الواقع الراهن: «والمثقف اليوم هو الذي يعي روح العصر، ويندمج في تياره، ويساهم عن طريق الكلمة والفكر من أجل زيادة معارف الناس وصقل وجدانهم، وجعلهم بالتالي أكثر إنسانية سواء من حيث العمل أو الإحساس» (منيف، ٢٠٠٣: ٧٣).

فجاء خليل حاوي بقصة سدوم في شعره؛ فالسرد القصصي كثير شائع في جميع الآداب، لأنّ في ذلك إشباعاً لرغبة أهل الأدب الفطرية؛ «ونحن ندرك أنّ السرد القصصي يشبع لدى الكاتب والقارئ ميلاً فطرياً إلى تذوق العراك والمآسي في العلاقات بين الكائنات» (شريم، ١٩٨٧: ١٥).

منهج البحث اعتمد على تفحص الجذور التراثية للقصة في منابعها الدينية الأصلية (من القرآن، والكتاب المقدس) ثم مقارنتها مع ما جاء به خليل حاوي عنها في قصائده وما أحدثه فيها من تغيير وكشف كيفية عصرنتها في شعره.

تعود أهمية هذا البحث إلى الأمور التالية:

أولا: التعرف على كيفية بعث التراث الديني في العمل الشعري المعاصر؛

ثانيا: التعرف على كيفية إسقاط التراث وصبّه على الواقع المعاصر؛

ثالثا: كشف مدى تأثّر الشاعر خليل حاوي بالمضمون الديني؛

رابعا: كيفية الرمز بالقصة التراثية الدينية إلى القضايا المعاصرة.

هناك دراسات اعتنت بشعر حاوي وأشبعته بحثاً وتحليلاً؛ لكننا لم نعثر على دراسة مستقلة عن سدومياته، وجذورها التراثية، ودلالاتها العصرية، وتحويراته فيها ، وما حمّلها من مضامين حسب رؤاه السياسية، والاجتماعية، والفنية؛ فأفردناها في هذه الدراسة.

هناك مقالة بعنوان "أشكال التناص الديني في شعر حاوي" من تأليف الدكتور على نجفى أيوكى والسيدة فاطمه يگانه في مجلة *دراسات في اللغة والعربية وآدابها* السنة الثانية العدد السادس صيف

١٣٩٠ هـ ش. هذه المقالة رغم أهميتها لم تبيّن الدلالات الرمزية، والتشاؤمية، والدلالات العصرية في سدوميات خليل حاوي، أما في شرح قصيدة "الأم الحزينة" اكتفت الدراسة بالمقارنة بين عرب الأمس المناضلين وعرب اليوم الخاملين المتخاذلين؛ فأهملت ما بيّنا في هذه الدراسة من جوانب هامة جداً في الموضوع.

توجد مقالة أخرى بعنوان "الصور الإشارية (التناصية) للموت عند خليل حاوى" في مجلة *العلوم الإنسانية الدولية*- العدد ١٩(٤) ٥٥-٧٢ سنة ٢٠١٢م- ١٤٣٣هـ ق للكاتب: علي بشيري وآخرين، عالجت المقالة موضوع الموت برؤية إنسانية عامة وبتحليل عقلي صرف دون أنْ تتوسع بالبحث فيما نحن فيه من دلالات قصة سدوم في شعر حاوي.

هناک مقالة أخرى للكاتب أحمد نهيرات بعنوان "إسقاط التجربة القصصية الإنجيلية على الواقع السياسي العربي في شعر خليل حاوي (قصيدتا لعازر ١٩٦٢ والأم الحزينة نموذجا)" وطبعت في مجلة *دراسات في العلوم الإنسانية الدولية*، ٢٠١٥- ١٤٣٦ هـ. ق، العدد ٢١(٢) ٢١-٣٨- صص ٢١-٣٤. تناولت المقالة نقد الشاعر للواقع السياسي باستحضار قصتين من التراث المسيحي وإسقاطهما على واقع السياسية والسياسيين في الوطن العربي وكان الشاعر في استحضاره القصتين ناقماً على السياسة وأهلها، ناقداً لها بجرأة وصراحة.

للبحث هدفان؛ أولاً: كشف كيفية استحضار خليل حاوي قصة قوم لوط الدينية في شعره، وثانياً: بيان كيفية عصرنة الشاعر لهذه القصة مبيناً دلالاتها الاجتماعية والسياسية خاصة.

٢- المفاصل التراثية في السدوميات وتحويراتها العصرية في ديوان خليل حاوي

تناول الشاعر قصة سدوم في ثلاث قصائد؛ في القصيدة الأولى "سدوم"، يحوم اليأس على كل شيء. الشؤم يبدو ماثلاً بكل وضوح، والشاعر يبدو فيها ماقتاً للحياة ومظاهرها، يائساً منها. احتوت القصيدة على كثير من المفردات السلبية. في القصيدة الثانية "عودة إلى سدوم" يبدو الشاعر متفائلاً، فيتراءى تفاؤله من خلال أمله بإمكانية عدول الشعوب العربية عن التخلف والبدء في مرحلة جديدة من النهوض والبعث. في القصيدة الثالثة القصيرة، يندم الشاعر على تفاؤله الذي أبداه في قصيدته الثانية، فيستدرك ما بدر منه من تفاؤل فيها، فيعود إلى تعبيره المتشائم ومعتقده القاتم.

وقد عكس الشاعر في هذه القصائد مفاصل ثلاثة من القصة هي: رسالة النبي لوط (ع)، وانحراف قوم لوط الجنسي، والانتقام الإلهي منهم؛ وقد كان الشاعر متأثّراً فيها بما جاء في التراث الديني من التوراة، والإنجيل، والقرآن.

أما الموضوع الأول أي: رسالة النبي لوط (ع)، فيستحضرها الشاعر لنقد القيادات العربية الراهنة الفاشلة والتي يعتبرها ضعيفة لا تقدر على القيام بواجبات القيادة من جرأة وحكمة؛ فيطالب بظهور قائد فذّ يحل محلّها فيخلص الشعوب العربية ممّا هم فيه من تخلّف وفشل و....

أمّا الموضوع الثاني أي: شذوذ السدوميين، فيستحضره الشاعر لأمرين؛ أولاً: ليصبَّ جام غضبه على الشعوب العربية لركونهم على الفسق والفجور وانصياعهم للفساد المسيطر على أوطانهم. ثانياً: ليرفع من همم الشعوب العربية ومعنوياتهم ويستنهضهم للخلاص من تخلّفهم بتحذيرهم من مغبة الخذلان والقبول بالفساد بسكوتهم فيهلكون كما هلك السدوميون قبلهم بفسادهم.

أما الموضوع الثالث أي: العذاب الإلهي، فيستحضره الشاعر للتعبير به عن رؤاه التشاؤمية ويأسه من تحسّن الوضع الراهن. هذا الموضوع أخذ السهم الأوفر من سدوميات خليل حاوي.

٢-١- الرسالة والسيادة

رسالة النبي لوط (ع) في التراث الديني

رسالة النبي لوط (ع) من أهمّ ما أكّد عليها القرآن وقد أشار إليها في مواضع عدة، منها ما جاء في سورة الصافات، تبيّن أوجهاً من رسالته (ع): ﴿**وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (صافات/١٣٣) وقد احتوت الآية على أدوات تأكيد كثيرة لتثبيت رسالته؛ كما تبيّن سورة الشعراء تكذيب قومه رسالتَه: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الشعراء/١٦٠) فلم ينساقوا لها؛ رغم معرفتهم به معرفة تامّة فهو منهم وأخوهم: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ (الشعراء/١٦١).

امّا الكتاب المقدس فقد قصّ زيارة الملائكة للنبي لوط (ع): «**فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا**» (الإصحَاحُ التَّاسِعَ عَشَرَ) ما يدلّ على أنّ لوطاً (ع) كان نبياً يوحى اليه حسب رأي الكتاب المقدس.

صورة السيادة في الوطن العربي في السدوميات

الجانب الرسالي والقيادي في قصة النبي لوط (ع) صار المنطلق الذي من خلاله تطرق الشاعر إلى قضية السيادة في الوطن العربي، صورة العلاقة فيما بين النبي لوط (ع) وشعبه ألهمت الشاعر بأن يتطرق إلى القيادات في الوطن العربي من جهة والشعوب العربية من جهة أخرى؛ لكن الشاعر في اسقاطه للقصة على الواقع السياسي الراهن قد أحدث تغييراً جذرياً فيها. فالقصة التراثية تقول: كان هناك شعب منقاد لأمياله النفسية لا يولي الأخلاق أهمية وقد انخرط في مستنقعات الفسق والفجور؛ فأرسل الله سبحانه النبي لوطاً (ع) لتخليصهم من الفسق وإرشادهم، لكن السدوميين أبَوا الانصياع له؛ بينما الصورة في سدوميات حاوي تنقلب تماماً، إذ تتراءى فيها شعوب عربية مضطهدة تريد الخلاص لكنها تعاني من قيادات تقف حجر عثرة في طريقها. إذن؛ في القصة التراثية، شعب مأسور بأيدي الشيطان وقيادة حكيمة غير مطاعة، وفي قصة خليل حاوي، شعوب عربية مضطهدة تريد الخلاص وقيادات جبارة تمنعه من ذلك.

الشعوب المحكومة وضعفهم النفسي

الاتهامات الكثيرة لقوم لوط في التراث الديني صارت منطلقاً ينطلق منه الشاعر لتوجيه اتهامات مماثلة للشعوب العربية؛ علّه يصيبهم في صميم غيرتهم فيستنهضهم للخروج ممّا هم فيه من ركون وركود؛ فبدأ الشاعر بتحليل نفسية الشعوب العربية وبيان واقعهم المزري لتبيين مواقفه السياسية.

في المقطع التالي، يبيّن الشاعر الحالة النفسية السيئة للعرب بالإشارة إلى مهنهم الدنيئة وأعمالهم الساقطة، فهم ليسوا إلا بغايا ولصوصاً، ابتعدوا عن القيم وسقطوا في الهاويات من بغي وسرقة: **خلَّفَتْهم غزواتُ الشرق والغرب/ لصوصاً وبغايا/ خرقاً ممسحة في فندقِ الشرقِ الكبيرْ** (الديوان: ١٥١).

هذه الصورة للشعوب العربية تناسب الوصف الأبرز للصورة التي رسمها التراث الديني عن قوم لوط وهي صورتهم الفاسقة الفاجرة المأسورة بيد الانحراف الجنسي.

الحكام وعقدهم المكبوتة

التمهيد السابق الذي جاء به الشاعر عن انشغال الشعوب العربية بالصغيرات من الأمور يكشف عن مدى بعدهم عن الاهتمام بالقضايا العامة والمصيرية كالقضايا السياسية وعلاقتهم بقياداتهم. فالشعوب العربية، على رأي الشاعر، لا تولي قضاياها السياسية اهتماما كافيا وليس لها أي دور في اختيار

الحكام. يحكم عليهم أمير صغير النفس يمارس الجنس خارج إطاره الطبيعي فيجامع البغايا والمتلهفات على الجنس ويعاني من شذوذ جنسي كقوم لوط: **بنتهم تستمرئ الناب الذي يغرز/ في البض الحريرْ / وليكن ناب خصيٍّ / إن يكن ناب أميرْ** (الديوان: ١٥١).

في هذا المقطع، يظهر تأثر الشاعر بقصة قوم لوط من ثلاثة جوانب؛ أولاً: من أنّ الشعوب العربية كقوم لوط فقدت كرامتها فلم يعد لها شعور بالكرامة الشرفية؛ فبناتهم معرَّضة للفاسقين؛ ثانياً: ومن أنّ الحاكم في الوطن العربي يعاني من نقص جنسي كما كان قوم لوط يعانون من مشاكل جنسية، يعرّض الشاعر بالقيادات الحاكمة الحالية ويعتبرها غير مؤهّلة للقيادة التي تريد في مقدماتها رجولة ليست في تلك القيادات، فالأمير خصي؛ ثالثاً: ومن أنّ التعابير في سدوميات خليل حاوي صريحةٌ في دلالتها على الجنس بقبح فاضح، مثل: تستمرئ، الناب، يغرز، خصي، كما كانت أفعال قوم لوط غايةً في القبح والفضيحة.

في المقطع تحليل مبطَّن عن علاقة الشعوب العربية بحكامها التي تكوّنت على أساس الإملاء، والاستبداد، والدكتاتورية من قبل القيادات من جهة، والقبول، والتمكين، والانصياع من قبل الشعوب العربية من جهة أخرى. فالشعوب تنساق لكل ما يمليه عليهم السلطان وإن كان ممّا يتلاعب بكرامتهم ونواميسهم. وفي إشارة خليل حاوي إلى عقم الحكام إشارة كنائية إلى ضعف القيادات العربية التي فقدت رجولتها.

تشوق الشعوب العربية إلى بطل منقذ

اتخذ الشاعر قيادة النبي لوط (ع) أسوة يطالب بمثيلها في الوطن العربي، فيتشوّق إلى ظهور قائد فارس يتمّ على يده خلاص العرب من تخلّفهم ثم انبعاثهم من جديد. يتّصف هذا الفارس بالشجاعة الفائقة، فلا يهاب الأعداء (من غول وتنين) وفي هذا الوصف للقائد المنتظَر يعرّض الشاعر بالقيادات الراهنة، فيصفها – مكنّياً– بالجبن في مواجهة الأعداء والخوف منهم: **فارسٌ يمتشقُ البرقَ على الغولِ/ على التِّنّينِ، ماذا هَلْ تعودُ الْمُعجِزات؟** (الديوان: ١٥٨).

الشاعر هنا،كأنه لا يصدّق ظهور هكذا قائد في عالم الواقع، لأنّه يلتجئ إلى عالَم الأسطورة للتعبير عن ذلك، ويعبر بلفظة المعجزة عن مراده وأمنيته بظهوره.

يستطرد الشاعر بعد ذلك إلى ذكر قائد فذ هو السيد المسيح (ع) وما حققه من نصر، حين ذكر نهوضه حافياً في وجه الطغاة؛ يريد الشاعر بذلك أن يرفع من معنويات الشعوب بتذكار الماضي المجيد

وانتصاراتهن، وأنّ صاحب الحق سينتصر وإن لم يملك من أسباب القوة كثيراً: **بدويٌّ ضربَ القيصرَ بالفرْسِ/ وطفلٌ ناصريٌّ وحفاةْ / رَوَّضوا الوحشَ بروما، سَحَّبُوا/ الأنيابَ مِنْ فكِّ الطُّغاةْ/ ربِّ ماذا/ ربِّ ماذا/ هَلْ تعودُ المعجزاتْ؟** (الديوان: ١٥٩).

من هذا المنطلق البشير، يتواصل النظم التفاؤلي، في التعابير التالية، فيصفّي الشاعر تاريخه من أرجاسه وعتمته وجحيم ذكرياته، ويتغنّى بالصبح هنا بخلاف صبح السدوميين، والهدف من ذلك، صناعة مستقبل مشرق خصيب تتفجر ينابيعه؛ فيرمز الشاعر إلى لزوم التخلّص من الأفكار المتخلّفة، والرجعية، ومن كل قديم لا يتماشى مع المستجدات الراهنة: **بِاسمِ ما أَحرقتُ مِن نفسي بنفسي/ لِأُصفّي وجهَ تاريخي وأمسي/ بِاسمِ هذا الصّبحِ في "صنين"/ والعتمةُ خلفي وجحيمُ الذكريات:/ لِيحلَّ الخصبُ وَلِتَجْرِ الينابيعُ** (الديوان: ١٦٠).

يتحقق ذلك النهوض بفعل الأمل الكبير بالجيل الجديد المرتوى من الحب، والبعيد عن البغض والكره؛ ذلك الجيل الذي سيحقق النصر بعمله الدؤوب القريب من حد الإعجاز: **فارسٌ يُولَدُ مِنْ حبّي لِأَطفالي/ وحُبّي لِلْحَياةْ/ لِتحلَّ المعجزاتْ/ ربِّ ماذا/ ربِّ ماذا/ هَلْ تعودُ المعجزاتْ؟** (الديوان: ١٦٠-١٦١).

في المقطع دلالة رمزية على أمل كبير بالمستقبل حيث تنهض قيادة حكيمة مؤهَّلة تأخذ بيد العرب إلى الطريق الصحيح. ويمكن ذلك النهوض بالأمور التالية؛ أولاً: بقيادة حكيمة تعرف أصول الحكم وقد كنّى الشاعر عن ذلك بالفارس الشجاع في المعارك الذي سيحافظ على كيان الأمة، بعد الخلاص من القيادات الحالية. ثانياً: بشعوب عربية تتولد من جديد بأفكار جديدة ملؤها الحب والمحبة، بعد تخلّيها من العداء؛ ثالثاً: بالعمل الدؤوب القريب من المعجزة، بعد ترك الكسل.

اعتنى الشاعر خليل حاوي برسالة النبي لوط (ع) ودوره القيادي فيها وعلاقته بشعبه ليؤكّد بشكل رمزي على أمور ثلاثة؛ الأوّل: على أنّ الشعوب العربية قد فقدت ثقتها بنفسها فباتت خاضعة مقابل الظلم والجور لا تحرّك ساكناً؛ الثاني: على ضعف القيادات في الوطن العربي؛ لانشغالها بالفسق والفجور. الثالث: على حاجة الشعوب العربية إلى قائد فذّ يخلصهم من تخلّفهم ويأخذ بهم إلى طريق الرقي والنجاح.

٢-٢- الانحراف الجنسي

انحراف السدوميين الجنسي في التراث الديني

أشار القرآن إلى سبب الانتقام الإلهي من قوم لوط وهو انحرافهم الجنسي وشذوذهم المنكر في العلاقة مع الجنس المذكر. ذكر هذا السبب صراحة في سورة النمل: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ (النمل/ ٥٤ و٥٥) وفي الآية إشارة صريحة إلى علمهم بقبحها وشناعتها. كما ذكر السبب نفسه في سورة الأعراف: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾ (الأعراف/ ٨٠ و٨١) في الآية إشارة صريحة إلى سبقهم العالمين في الخوض في هذا النوع من الانحراف الجنسي.

كما أشار الكتاب المقدس في الإصحاح ١٨ إلى هذه الخطيئة حيث قال: «**وَقَالَ الرَّبُّ: إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا**».

الانحراف الجنسي في السدوميات

شذوذ السدوميين الجنسي، وما فيها من شناعة أخلاقية عملية من جهة أخرى، وما تدلّ عليه من عقد سلبية في نفوس أصحابها من جهة ثانية، وبعدهم عن القيم الإنسانية من جهة ثالثة؛ كلّ هذه جلبت نظر الشاعر خليل حاوي فاستحضرها في شعره لموافقتها عقيدته السوداوية.

تطرق الشاعر إلى انحراف السدوميين ليحذر العرب من مغبة الولوج في المفاسد ويقوم بواجبه الإصلاحي بضرب مثل من أمثال الفاسدين وما آل اليه أمرهم من دمار وهلاك.

إسقاط شذوذ السدوميين على الواقع الاجتماعي المعاصر

يعصرن الشاعر موضوع الانحراف الجنسي عند قوم لوط ويعطيه جانباً اجتماعياً وسياسياً. ففي الجانب الاجتماعي يقارن الشاعر بين حال الشعوب العربية الآن وأهل سدوم آنذاك؛ فالشرّ قد تمكّن من السيطرة على نفوس القومَينِ سويّة.

في المقطع التالي يتّهم الشاعر أهله وإخوته من العرب بالتمادي في الفساد لسنوات طويلة، بحيث تولّد نسل جديد فيقول: ...**أهلي، إخوتي../نسل السبايا** (الديوان: ١٥٠).

كما يأسف الشاعر لهزيمة أهله العرب وانكسارهم بعد غزوات الأعداء عليهم، فصار الرجال منهم لصوصاً حقاراً والنساء بغايا رخيصات في سوق الدعارة: **خَلّفَتْهُم غزواتُ الشَّرقِ وَالْغَرب/ لُصوصاً وَبغايا** (الديوان: ١٥١).

بهذه الكلمات يصور الشاعر مدى التخلف الإجتماعي والإنفلات الخلقي، وهو تصوير في غاية اللذع والتهكم؛ لعله يصيب العرب في صميمهم فيفيقوا من سباتهم ويعودوا إلى رشدهم.

في القسم التالي، يواصل الشاعر خليل حاوي تحقير الشعوب العربية؛ فيعيّرهم بالعقم وعدم القدرة على التعامل الجنسي الطبيعي وهي كناية تحقيرية تمسّ صميم العرب لأنه ينزّلهم من منزلة الرجال؛ ثمّ يضيف كنايته لسعاً وإيلاما أكثر حين يستحضر آخرين بدلهم يقومون بواجب الرجولة: **لنْ تَموتَ الأَرضُ إنْ مُتُّمْ/ لَها بَعْلٌ إلهيٌّ قَديمْ/ طالَما حَنَّتْ إلَيْهِ عَبْرَ لَيْلِ الْعُقْمِ.../ أُنثى واهِنَةْ/ فَضَّها الْبَعْلُ وَرَوّاها / فَغَصَّتْ بِالرجالِ الْآلِهَة** (الديوان: ١٥٣).

إسقاط شذوذ السدوميين على الواقع السياسي المعاصر

تبلور إسقاط موضوع الانحراف الجنسي على الواقع السياسي المعاصر في اتهام الشعوب بعدم الشعور بالغيرة الناموسية أولاً؛ وفي اتهام القيادات بالشذوذ الجنسي ثانياً؛ والثالث حين اتهم تلك القيادات بالعقم والضعف الجنسي؛ ورابعاً حين طالب باستبدال تلك القيادات.

استعان الشاعر بموضوع الانحراف الجنسي للسدوميين للتعبير به عن الوضع السياسي المتأزّم في الوطن العربي وعبّر عن اللامبالاة وعدم الاهتمام بالسياسة عند الشعوب العربية بشكل مبطّن وكنائي؛ وذلك حين اتهمهم بعدم الغيرة الناموسية وعدم الإحساس بالكرامة الشرفية حين رأوا بناتهم معرّضات للفاسقين فلم يحرّكوا ساكناً: **بنتهم تستمرئ الناب الذي يغرز** ... (الديوان: ١٥١). كما اتهمهم الشاعر بعدم الغيرة الناموسية حين اعتبر نساءهم بغايا في سوق الدعارة في مقطع آخر: **خلَّفَتْهم غزواتُ الشرق والغرب / لصوصاً وبغايا** (الديوان: ١٥١).

وهاتان الظاهرتان الاجتماعية (تعريض البنات للفاسقين وامتهان النساء في سوق الدعارة) تدلّان على عدم إحساس الشعوب بالمسؤولية حتى في القضايا الشخصية كالشرفية منها، ما يترتب عليهما بالأولى عدم الإحساس بالمسئولية السياسية قبالة الوطن، والسيادة، والحكم.

واستحضر الشاعر الانحراف الجنسي للسدومين حين اتهم القيادات السياسية في الوطن العربي بالانحراف الجنسي وممارسة الجنس خارج إطاره الطبيعي؛ وذلك حين ارتبطوا بالمتلهفات للجنس.

والمرّة الثالثة التي استحضر الشاعر الانحراف الجنسي للسدوميين كان حين اتهم القيادات بالضعف الجنسي والعقم في إشارة كنائية إلى أمرين، إلى العلاقة العقيمة بينهم وبين الشعوب العربية من جهة، وإلى عدم أهلية تلك القيادات للقيادة من جهة أخرى، لأنها قد افتقدت رجولتها: .../ **وليكن ناب خصيٍّ / إن يكن ناب أميرْ** (الديوان: ١٥١).

والمرة الرابعة، حين نادى وطالب بمنقذ فذ يخلّص الشعوب العربية ويقودهم إلى الرقي. وقد تناولت الموضوع بالبحث تحت عنوان "تشوق الشعوب العربية إلى بطل منقذ" آنفاً.

٢-٣- العذاب والانتقام الإلهي

٢-٣-١- صورة العذاب في التراث الديني

صبّ القرآن أكثر اهتمامه في قصة قوم سدوم على ما حلّ بهم من سوء وعذاب نتيجة بغيهم وانحرافهم الجنسي. ذكر القرآن من العذاب: سببه، ووقته، وعدم الالتفات إلى الوراء، والمطر من السماء، ودمار القرية، وهلاك السدوميين. وقد صوّر القرآن هذه اللحظة ومراحلها تصويراً واضحاً للعظة والاعتبار في كثير من السور؛ منها سورة القمر حيث قال: ﴿**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ (القمر/ ٣٤).

أمّا الكتاب المقدس فقد هدّد السدوميين بالهلاك على لسان الملكَين المرسَلَين إلى النبي لوط (ع): وَقَالَ الرَّجُلاَنِ لِلُوطٍ: «... **اخْرجْ مِنَ الْمَكَانِ، لأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ**» (الإصحَاحُ ١٩).

٢-٣-٢- صورة العذاب في السدوميات

أكثر حاوي من التطرق إلى عذاب السدوميين برؤية تشاؤمية، وفق ما جاء في التراث عنها. فقد أشار في قصيدته إلى المواضيع التالية وفق ما في التراث الديني؛ أولاً: أشار حاوي إلى زمن العقاب فقال: بأنّ العذاب حلّ بالسدوميين صباحاً، لذلك تكلّم في سدومياته عن الصباح بنظرة متشائمة ووصفه بأوصاف سلبية ك: الصبح اللعين، وصباحاً شاحباً. ثانياً: أشار الشاعر إلى السماء، ورعدها، وبرقها، ومطرها وتكلّم عنها طويلاً. ثالثاً: تكلّم الشاعر عن المسخ إلى عواميد، ورابعاً: تكلم الشاعر عن الموت، والدمار، وما حلّ بالقرية من فناء؛ كلّ ذلك وفق المنقول الديني.

يضفي الشاعر على الموقف القاتم كثيراً من السلبيات ولما يراه يتماشى مع ما في نفسه من رؤى تشاؤمية يشحن كلامه الشعري بكثير من المفردات السلبية والمفاهيم القاتمة فيزداد الموقف الانتقامي الحزين سوداويةً وحزناً.

في المقطع التالي، يرمز الشاعر إلى الدمار الشامل الذي حرق كل شيء بعد نزول العذاب. النقمة السماوية لم تُبقِ على شيء من سدوم وأهلها، كما لم تترك لها بقية تقوم عليها في غدها. وقد أصبحت أرضها سبخة لا يمكنها أن تنمّي نباتاً: **أَمْسي احْتراقٌ/ وَاحْتراقٌ غَدي/ وخُطوةٌ مُرهقةٌ مرهقة/ تَهُمُّ فِي الظَّنِّ ولا تَبْتَدي/ في سَبْخَةٍ مَحروقَةٍ مُحْرِقَة** (الديوان: ٥٥٩).

لا يبقى على أرضها شيء مستوٍ قائم؛ فالمصيبة عظيمة لا يقاومها شيء فيتساقط أمام جبروتها: **لا يلتقي ظلّ على أرضِها/ من غَيمةٍ أو نَبتةٍ مُورِقة** (الديوان: ٥٦٠).

الصورة القاتمة عن المصيبة في التراث الديني وما حل من دمار واحتراق صارت المنطلق الذي منه انطلق الشاعر ليحلّق في أجواء شعرية فيعبر عن شدة الاحتراق والدمار بأسلوب شعري فيه الكثير من الإبداع. كلّ المظاهرالطبيعية – بعد الانتقام وعلى تعبير الشاعر– تحتوي على مفاهيم تتناقض مع ما نعرفه عنها. فالتراب الذي هو مبدأ الحياة، تحرقه النار فتقضي عليه؛ والحجر الذي هو رمز الصلابة والقوة تقضي عليه النار فيحترق أيضاً، حتى السحاب التي تبشّر بالحياة ونزول الغيث والمدد من السماء تلتهمها النار أيضاً فتقضي عليها فلا تقدّم خيراً: **يَحْتَرِقُ التُّرَابْ!/ يَحْتَرِقُ الحَجَرْ!/ يَحْتَرِقُ السَّحابْ** (الديوان: ٥٥٩).

الف– الصباح

صباح الانتقام في التراث الديني

صوّرت الآيات زمن نزول العذاب حيث كان صباحاً؛ جاء في سورة القمر: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ**﴾ (القمر/٣٤) ﴿**وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ (القمر/٣٨).

وقد تطرق الكتاب المقدس إلى زمن العقاب حيث كان صباحاً كذلك: «**وَمَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، دَخَلَ لُوطُ إلى صُوغَرَ. ثُمَّ أمطَرَ اللهُ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتاً مُلْتَهِباً وَناراً مِنْ عِندِ اللهِ مِنَ السَّماءِ. فَدَمَّرَهُما مَعَ الوادِي كُلِّهِ، وَكُلّ السّاكِنِينَ هُناكَ، وَكُلّ ما نَما فِي الأَرْضِ**» (الكتاب المقدس، الإصحاح ١٩).

الصباح في السدوميات

الصبح ظاهرة طبيعية تغنّى بها الشعراء، باعتباره تمثيلاً للحياة والانبعاث بعد رقدة، وسكون، وظلام حالك. لكنّه في شعر خليل حاوي، يتحول عن دلالته الإيجابية ليدلّ على معان سلبية: **سَوْفَ نَبْقى خَلْفَ مرمى/ الشَّمْسِ والثَّلجِ الحزينْ** (الديوان: ١٠٩).

حتى أشعة الشمس التي من طبيعتها الإنارة، وبسط الدفء، والحياة، وبداية اليقظة تتحول في سدوميات خليل حاوي إلى ضدّها فتصير سهاماً تميت، كما تصير حرارة الشمس باردة كالثلج فلم تعد تُدفِئ بحرارتها بل تجمّد كالثلج.

في المقطع التالي، يلعن خليل حاوي الصبح ويتعامل معه بصورة سلبية ويقول: **هيَ ذكرى ذلِكَ الصُّبحِ اللَّعينْ/ كانَ صُبْحًا شاحِبًا/ أَتْعَسَ مِنْ لَيْلٍ حَزين** (الديوان: ١١١).

ذكرى الصباح لا تبعث في الشاعر إلا إحساساً سلبياً شبيهاً بما يشعر به من أمر ملعون. فالصبح يفوق اللّيل تعاسة باشراقه الذي قد ملأ الآفاق سكوناً_ لا حركةً_ على رأي الشاعر البتة.

بعد تلك الصورة القاتمة عن الصبح، يجد الشاعر الأجواء المناسبة للتعبير عن رؤاه المتشائمة فيستحضر رموزاً سلبية ومشئومة كالخفافيش والبوم؛ ليضفي شؤماً أكثر على شعره: **كانَ فِي الْآفاقِ وَالْأرضِ سُكونْ/ ثُمَّ صاحَتْ بُومَةٌ، هاجَتْ خَفافيشٌ/ دَجَا الْأُفْقُ اكْفَهَرَّا** (الديوان: ١١١).

البوم والخفافيش التي تختفي عادةً في الصباح؛ تظهر في هذا الصباح الذي يصوره خليل حاوي، فالصباح هذا على غير عادته من النور والإشعاع إذ هو قاتم أسود، لذا تظهر فيه مظاهر الشؤم هذه لما ترى لنفسها من مجال فيه. تم الحشد اللغوي للتعبير عن الشؤم إما بصورة صريحة كما في البوم، والخفافيش، والسكون، والدجا وإما بصورة مقلوبة المعنى كما في الصبح بعد تجريده من صفة الحركة والنشاط وتحميله معنى السكون.

ب– السماء

السماء في التراث الديني

أشارت سورة هود إلى أنّ السماء رمت السدوميين بحجارة متتالية كقطرات المطر المتتالية: ﴿**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ (هود/ ٨٢-٨٣). وما كان هذا المطر إلّا لجرمهم وعدوانهم ومخالفتهم طبيعة الإنسان

وفطرته: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ (الأعراف/٨٤) وهذا المطر لم يكن بدون سابق إنذار ولم يكن مفاجأة: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾ (الشعراء/١٧٣).

وقد صرّح الكتاب المقدس بذلك: «**فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ**» (الإصحاح ١٩).

السماء في السدوميات

وصف الشاعر السماء بأنّ الآذان تصطكّ من رعدها المخيف، وفيها سحب حمراء لم تمطر إلّا جمراً، وكبريتاً، وملحاً، وسموماً: **وَدَوَتْ جَلجلةُ الرَّعدِ/ فَشَقَّتْ سُحُبًا حمراءَ حرَّى/ أمْطَرَتْ جمرًا وكبريتًا وملحًا وسمومًا**/ (الديوان: ١١٢).

فالسحب التي تمثل الخير، والبركة، والإنماء؛ وينتظرها الناس بلهفة لتخفّف عنهم مشاكل الحياة في عالم الواقع، تتحول وتتبدّل إلى ضدها في سدوميات خليل حاوي ولا تدلّ إلّا على معان سلبية.

ج- المسخ إلى عواميد

المسخ إلى عواميد في التراث الديني

استقى الشاعر فحوى المسخ من التراث الديني؛ جاء في سورة هود: ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾ (لوط/٨١). وكذلك الكتاب المقدَّس أشار إلى المسخ إلى عواميد من الملح: «**ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح**» (الإصحاح التاسع عشر/ رقم ٢٦).

المسخ إلى عواميد في السدوميات

بتأثير من هذا المضمون التراثي قال حاوي: قد تحولنا إلى عواميد ممسوخة من الملح، لا أهمّيّة لنا؛ فنحن وخلقنا عبث وبلاهة: **وإذا نحنُ عواميدٌ من الملحِ،/مُسُوخٌ من بلاهاتِ السنينْ**/ (الديوان: ١١٢).

وهذا الرأي غايةٌ في النظرة التحقيرية التي تطيح بالإنسان وكيانه حين يعتبر وجوده فضلة لا خير فيها، وبلاهة وغلطة في مسيرة الخلق. صورة الإنسان هنا، تدلّ على أسره، وعدم اختياره، وعدم قدرته على تحقيق أيّ انجاز.

د- الدمار والهلاك

دمار القرية وهلاك أهلها في التراث الديني

وكانت عاقبة السدوميين انقلاب قريتهم رأساً على عقب، فتخرّبت تماماً: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** و...﴾ (الحجر/٧٤), وفي سورة هود نشاهد صورة العاقبة نفسها: ﴿**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** و...﴾ (هود/٨٢). كما وضّح الكتاب المقدَّس تلك العاقبة في الإصحاح (١٩) فقال: «**وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتِ الأَرْضِ**».

دمار القرية وهلاك أهلها في السدوميات

يبدأ الشاعر بتصوير دمار القرية بالسيل العارم الذي فاضَ بعد مطر غزير، فقضى على مظاهر الحياة؛ وغدا براكين جهنمية يغزو القرية فيقتل أهلها ويمحوها من الوجود دون مبالاة: **وَجَرى السَّيْلُ براكينَ الجَحيمْ/ أحْرَقَ الْقَرْيَةَ، عَرّاها،/ طَوى الْقَتْلى وَمَرَّا** (الديوان: ١١٢).

الهلاك بهذه الصورة غايةٌ في الدلالة على النهاية المأساوية؛ حيث البراكين الجهنمية تدكّ القرية وتدمّر بناياتها وتقتل أهلها.

في المقطع التالي، استحضر خليل حاوي صورة الانتقام مرّة أخرى وقال بأنّ الموت قضي علينا جميعاً؛ مات أصدقاؤنا الذين تسامرنا معهم طويلاً وذهبوا، كما الذكريات الجميلة التي كانت لنا معهم قد ذهبت فلم يبق منها شيء، حتى قلوبنا التي كانت عامرة نابضة بحبّهم هَفَتَتْ نارها فلم تنبض بالحيوية ولم يبق فيها إلّا صمت وسكوت: **وتلَفَّتْنا إلى مَطرحِ ما كانَ لنا/ بيتٌ، وسَمَّارٌ، وذِكرى/ فإذا أضْلُعُنا صَمْتُ صخورٍ/ وَفراغٌ مَيّتُ الآفاقِ.. صَحْرَا** (الديوان: ١١٣).

هـ- الاعتبار والعظة

الاعتبار بقوم لوط في التراث الديني

سوء عاقبة السدوميين صارت ذكرى يذكرها الآخرون، يعتبرون بها ويستخلصون منها عبراً تفيدهم في دنياهم وأخراهم. فآثارهم واضحة للعاقلين، جاء في سورة القمر: ﴿**وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (القمر/٣٥). وهي آثار على طريق المارة تجلب انتباههم ليل صباح كما جاء في سورة الصافات: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (الصافات/١٣٧- ١٣٨).

أما الكتاب المقدس فقد كرّر القصة مرّات ومرّات يكشف فيها عن جوانب من سوء السدوميين والانتقام الإلهي منهم والهدف من ذلك كله تذكير المؤمنين ليتّعظوا بعاقبة السدوميين.

الاعتبار بقوم لوط في السدوميات

تعاطى الشاعر مع عاقبة السدوميين من منظور سلبي، إذ يمهّد بخلق أجواء قاتمة، فيتكلم عن الموت ثمّ يصوّر ما حلّ بالسدوميين وكيفية صيرورتهم ذكرى فارغة لا خير فيها. فذكرياتهم لا تذكّره بماض يشتاق اليه لما فيه من مرارات، ولا تشعل في نفسه ما يتحسّر له لما فيه من معاناة: **لا اذِّكارٌ يُلهِبُ الحسْرَةَ/ من حينٍ لحِينْ/** (الديوان: ١٠٩).

يذكر الشاعر كلامه في المقطع السابق عن الذكريات بأداة النفي الدالة على الهلاك والعدميّة، ليعبّرَ عن شؤم الذكريات، والتأكيد على أنها تختلف عن الذكرى الوعظية الحافلة بالتربية والإرشاد.

الذكرى في بال خليل حاوي لا خير فيها فإنها لا تستطيع أن تثير فيه الحيوية والنشاط. كيف تستطيع الذكرى ذلك وهي من فراغ ميت يخلو من مظاهر الحياة كما تخلو الصحراء القاحلة منها. والذكريات المرّة لا تترك إلّا بقايا ومخلّفات من الرماد، والسواد: **بعضَ ذكرى/ أيُّ ذِكْرى، أيُّ ذكرى/ مِنْ فراغٍ مَيّتِ الآفاقِ.. صَحْرا/ مَسَحَتْ ما قَبْلَها، ثُمَّ اضْمَحَلَّتْ/ خَلَّفتْ مَطرحَها طَعْمَ رمادْ/ مَطرحَ الشمسِ رمادًا وسوادْ** (الديوان:١١٠).

تكريس مفردات دالة على الشؤم من: الحسرة، وفراغٍ ميّت، ومسحتْ، واضمحلّتْ، وخَلّفتْ، ورمادْ، وسواد؛ هذه المفردات المتتالية تكشف لنا عن جانب من نظرة الشاعر القاتمة.

في التعابير التالية، يتوافق تعبير خليل حاوي مع التعبير القرآني من جهتين: فهو يعتبر آثار السدوميين على طريق المارّة كما جاء في سورة الصافات: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ**﴾ (الصافات/ ١٣٧) هذا من جهة، وأما من جهة أخرى، فقد اعتبر القرآن عاقبتهم آية ينظر اليها الناس فيعتبرون كما في الآية ٣٥ من سورة القمر فصوّر الشاعر عاقبتهم عظةً وتذكيراً للناس كذلك: **إنْ تُذَكِّرْ عابرَ الدربِ/ بحالِ المَيّتينْ/** (الديوان: ١١٢-١١٣).

في المقطع التالي، يضفي الشاعر على الموقف من رؤيته المتشائمة أربعة أشياء؛ شيئاً من الفراغ فهي جوفاء، وشيئاً من عدم الأصالة فهي بلا أمس، وشيئاً من العدم والفناء فهي بلا يوم، وشيئاً من النسيان والخمول فهي بلا ذكرى: **لا تذكرُ، جوفاءَ/ بلا أمسٍ، بلا يومٍ وذكرى** (الديوان: ١١٣).

٣- النتائج

لقد استخدم خليل حاوي في قصصه الشعرية السدومية فن التناص مع التراث الديني، فجاء فيها بما نقله التراث الديني، مستغلاً تلك الأجواء للتعبير عن تشاؤمه؛ لذلك جاءت القصائد قاتمةً سوداوية. بدأ الشاعر استحضار القصة بالبيان السلبي والتعبير التشاؤمي في قصيدته الأولى، حيث جاءت مليئة باليأس من تخلف العرب المعاصرين ثم غيّر الشاعر نظرته في القصيدة الثانية حيث حمّلها كثيراً من الأفكار الإيجابية وعبر فيها عن أمله بمستقبل مشرق، لكنه غيّر رأيه مرّة أخرى في القصيدة الثالثة القصيرة حيث عاد فيها إلى معتقده المتشائم الأول. عصرن الشاعر قصته التراثية بمقارنة عرب الأمس وعرب اليوم وبما صبّ على المجتمع العربي المعاصر من توبيخ كما ورد في التراث عن توبيخ السدوميين. فنقد المجتمع العربي وبيّن سلبياته من تخلف، وركون، وانصياع للمستبدين. كما نقد الواقع السياسي وضعف الحكام العرب وعدم أهليتهم للحكم والسيادة؛ وكان نقده لاذعاً؛ كما تطرق إلى العلاقة المريضة بين الشعوب العربية وحكامها المبتنية على الاستبداد والجور. اعتمد الشاعر في سرد القصة على التعبير الرمزي في كثير من المقاطع الشعرية. فالسدوميون رمز الشعوب العربية؛ ورسالة النبي لوط (ع) رمز للقيادات في الوطن العربي. احتوت السدوميات على نظرة سلبية ورؤية متشائمة. استحضرها الشاعر لما في القصة من أجواء حزينة تتلاءم ومعتقده الفكري السلبي. برز تشاؤم الشاعر في تصاويره عن المصيبة خاصة عن مرحلة مابعد الانتقام الإلهي وما استخدم من كلمات سلبية.

المصادر

القرآن الكريم.

الإنجيل.

إسماعيل، عزالدين. (٢٠٠٧). *الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية* (الطبعة الأولى). بيروت: دار العودة.

بن نعمان، أحمد، وآخرون. (٢٠٠٥). *اللغة العربية: أسئلة التطور الذاتي والمستقبل* (الطبعة الأولى). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

حاوي، خليل. (١٩٩٣). *الديوان* (الطبعة الأولى). بيروت: دار العودة.

حسن، عليان. (٢٠٠١). *البطل في الرواية العربية في بلاد الشام* (الطبعة الأولى). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

زیرافا، میشال. (١٩٨٦). *الأسطورة والرواية* (الطبعة الثانية، ترجمة: صبحي حديدي). الدار البيضاء: منشورات عيون.

شریم، جوزیف میشال. (١٩٨٧). *دليل الدراسات الأسلوبية* (الطبعة الثانية). بیروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

عشماوي، محمد زكي. (١٩٨٠). *الأدب وقيم الحياة المعاصرة* (الطبعة الأولى). بیروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

عواد، عبدالحسین. (٢٠٠٦). *نقد الشعر: المنهج والمعيار* (الطبعة الثانية). بیروت: مؤسسة العارف للمطبوعات.

منیف، عبدالرحمن. (٢٠٠٣). *بين الثقافة والسياسة* (الطبعة الثالثة). بیروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الميسري، عبدالوهاب، وفتحی التریکی. (٢٠٠٣). *الحداثة وما بعد الحداثة* (الطبعة الأولى). دمشق: دار الفكر.

الورقي، السعيد. (١٩٨٤). *في الأدب العربي المعاصر* (الطبعة الأولى). بیروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.